الرواية والقصة القصيرة عند العرب
دليل للقارئ العام

● محمد عبيد الله

١. ١. التراث السردي عند العرب:

يتوافر الماضي العربي على مادة سردية غنية، فقد **عرف العرب أنواعاً قصصية بارزة من أهمها:**

أ. **أساطير الأولين:** وهي أقرب للقصص البطولي المدهش، وأشهر أعلام هذا النوع قصاص جاهلي اسمه النضر بن الحارث. جلب قصصه من بلاد فارس والحيرة (عاصمة المناذرة)، فروى قصص رستم وإسفنديار وغيرهما قبل جمع هذه القصص فيما يعرف بالشاهنامة الفارسية، وهي ملحمة مطولة منسوبة للفردوسي.

ب. **الخرافة:** وجاء اسمها من قصة عرفت باسم (حديث خرافة)، وحسب القصة: خرافة رجل استهوته الجن فعاش معها زمناً، ثم عاد ليحدث بقصته العجيبة، فصارت الخرافة من بعد اسماً للقصة العجيبة المرتبطة بعالم الجن وقصص الكهّان.

ج. **السيرة:** ومن نماذجها **السيرة النبوية** لابن إسحاق، وابن هشام، والسيرة الشعبية (مثل سيرة عنترة، وسيرة الزير سالم - المهلهل بن ربيعة، وسيرة سيف بن ذي يزن وسيرة الأميرة ذات الهمة... وغيرها). أما **السيرة الذاتية**، فمن أهم أمثلتها: كتاب التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، وكتاب طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي.

د. **الرسالة القصصية، أو القصة الفلسفية:** ومن نماذجها: قصة حي بن يقظان لأحمد بن طفيل، ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري، ورسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي. والرسالة القصصية حكاية مطولة نسبياً، تقترب من طول الرواية في العصر الحديث، وتعالج فكرة تأملية فلسفية بأسلوب قصصي، ومن إنجازاتها فكرة الرحلة إلى العالم الآخر، تأثراً برحلة الإسراء والمعراج، وقد **أثرت رسالة الغفران مثلاً في دانتي الإيطالي الذي كتب (الكوميديا الإلهية)** في صورة رحلة إلى عالم الفردوس والجحيم بما يقترب من بنية رسالة الغفران.

هـ. **ألف ليلة وليلة:** وهي القصة المشهورة المرتبطة بشهرزاد وشهريار، وتعد من نفائس السرد العالمي بعد أن ترجمت إلى أكثر لغات العالم، وقد كرّست ألف ليلة وليلة جملة من مبادئ السرد العالمي كمبدأ الإطارية، والربط بين القصة والحياة، وفكرة القصة المسلسلة (المتوالية القصصية)، وتعميق ارتباط السرد بالليل (شهرزاد تسكت حين يصيح الديك)، وعُدّتْ أيضاً من أرفع نماذج **الأدب العجائبي** في العالم.

و. **المقامة:** وقصص المقامات قصص واقعية ناقدة تصوّر تحولات المجتمع وأزماته، ومن ناحية شكلها القصصي تقترن ببطل محتال ذكي وبراوي، أو سارد مصاحب للبطل، كما تتميز بلغتها المسجوعة واضحة الإيقاع، وأشهر نماذجها: مقامات بديع الزمان الهمذاني، ومقامات الحريري.

ز. **المنامة:** من نمط الأحلام، وتقرن مبكراً بين السرد والحلم، وأهم نماذجها: منامات الوهراني.

ح. **تكاذيب الأعراب وقصص الفشر:** القصة هنا كذبة بيضاء تميل إلى المبالغة والإدهاش، وقد أفرد لها أبو العباس المبرد باباً واضحاً في كتابه (الكامل في اللغة والأدب).

ط. **النوادر:** وهي الحكاية المرحة أوالطرفة، وترتبط بشخصيات ضاحكة ومضحكة، منها شخصيات في عصر صدر الإسلام، وشخصيات الحمقى والطفيليين من مثل: هبنّقة، جُحا.

ي. **قصص الرحلة:** مثل رحلة ابن فضلان، ورحلة ابن جبير، ورحلة ابن بطوطة.

ق. **الكرامة الصوفية:** المرتبطة بقصص العجائب عن كرامات الأولياء والصالحين من المتصوّفة، كالحلاج ومحيي الدين بن عربي، وتتوافر الرسالة القشيرية على نماذج مناسبة منها، وكذلك كتاب أخبار الحلاج.

- من أبرز **المصادر السردية المدونة أو المكتوبة التي يمكن أن نقرأ فيها نماذج مميزة من السرد العربي القديم ما يلي:**

١. كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع.
٢. كتاب البخلاء للجاحظ.
٣. كتاب أمثال العرب للمفضل الضبّي.
٤. الإمتاع والمؤانسة لأبي حيّان التوحيدي.
٥. الفرج بعد الشدة، للقاضي التنوخي.
٦. كتاب التيجان في ملوك حمير لوهب بن منبّه.
٧. كتاب أخبار عبيد بن شريّه.

٨. ثمار القلوب في المضاف والمنسوب لأبي منصور الثعالبي.
٩. كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني.
١٠. مصارع العشاق لجعفر السراج.
١١. تسكين الأشواق بأخبار العشاق لمرعي بن يوسف الكرمي.

١. ٢. نشأة الرواية والقصة العربية الحديثة:

ظهرت الرواية والقصة القصيرة بصورتها الحديثة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، بتأثير من **عدة عوامل أبرزها:**

أ. الموروث السردي العربي، فأمة لها ذاكرة سردية غنية لابدّ أن تفيد من ذاكرتها في عصورها المتجددة.

ب. الترجمة والإطلاع على الروايات الأوروبية، فقد شهدت تلك المرحلة بوادر البعثات العلمية، وتأثير المدارس التبشيرية التي علّمت باللغات الأجنبية مما سمح باطلاع بعض الرواية الأوروبية التي كانت في أفضل حالاتها.

ج. تحولات النهضة ودوافع التقدم، إضافة إلى الانتباه للواقع العربي وضرورة تغييره فكانت الرواية أحج الأشكال الفنية المرشحة لقراءة المجتمع وللتأثير فيه أيضاً.

د. انتشار الطباعة وتطور الصحافة؛ مما استدعى نشر القصص والروايات المسلسلة، بما فيها من جاذبية وتشويق وتشجيع للقارئ على متابعة الوسيلة الإعلامية والتفاعل معها.

فهذه العوامل من أبرز المؤثرات التي أسهمت في تطوير الكتابة القصصية سواءً أكانت رواية أم قصة قصيرة. كما يمكن الإشارة إلى النشأة البرجوازية وللبيئة البرجوازية التي ظهرت فيها القصة والرواية، إذا ظهرت في بيئة مرتبكة بالتعليم وبمستوى اقتصادي مناسب، وربما يفسّر هذا الارتباط وضوح الخصائص الرومانسية في الروايات المبكرة والمجموعات القصصية، قبل أن تنحسر المدرسة الرومانسية تدريجياً لصالح تيارات واقعية وتاريخية وتجريبية في المراحل التالية.

١. ٣. الروايات المبكرة:

يمكن أن نؤرخ لمرحلة الطلائع والبدايات في نشأة الرواية العربية بما ظهر أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، وننهي هذه المرحلة (فنياً) بظهور نجيب محفوظ، أي حتى

نهاية الثلاثينات من القرن العشرين. وفيما يلي أبرز الأعمال التي تمثل هذه المرحلة موزعة **وفق التيارات الأساسية التي حكمت تلك المرحلة:**

١. **تيار محاكاة الموروث:** وقلّد ممثلو هذا التيار أساليب السرد القديم، وخصوصاً **فن المقامة** الذي يبدو أنه عرف آنذاك أكثر من غيره، إضافة إلى أنه عدّ أساساً للأساليب القصصية العربية الناضجة، وبدا هذا الاتجاه في الأعمال التالية:

١. ناصيف اليازجي ß مجمع البحرين.

٢. أحمد فارس الشدياق ß الساق على الساق فيما هو الفارياق (سيرة).

٣. محمد المويلحي ß حديث عيسى بن هشام.

٢. **اتجاه الرواية التاريخية:** وأشهر من كتبها جرجي زيدان في رواياته التي استلهمها من التاريخ العربي والإسلامي القديم، ومن أمثلتها: شجرة الدر، الحجاج بن يوسف، فتاة القيروان وغيرها.

٣. **الرواية الرومانسية (العاطفية):** ويمثلها بوضوح أسلوب جبران خليل جبران، مؤلف الأرواح المتمردة، والأجنحة المتكسرة.

٤. **رواية السيرة الذاتية:** كتب عدد من الأعلام سيرهم الذاتية بشكل قريب من أسلوب الرواية، وقد ساهمت هذه الأعمال في بلورة الشكل الروائي السيري، ومن أبرزها ما كتبه أحمد فارس الشدياق في كتابه السردي: الساق على الساق فيما هو الفارياق، وما كتبه رفاعة الطهطاوي في كتابه: تخليص الإبريز في تلخيص باريز، ومن بعدها ظهرت أعمال أكثر نضجاً: لطه حسين (كتاب الأيام)، وتوفيق الحكيم (عصفور من الشرق) و(عودة الروح) و(يوميات نائب في الأرياف) وكذلك لإبراهيم المازني (إبراهيم الكاتب) وللعقاد (سارة) وغيرها.

٥. **روايات متأثرة بالترجمة:** وهي أشبه بتلخيص أو تعريب لروايات عالمية، لكن المترجم/ المؤلف يذهب أبعد من حدود الترجمة إذ يقرّب تلك الأعمال من البيئة العربية، ويجري تغييرات في الأسماء ربما لتتناسب المترجمات مع ذوق القارئ العربي. وأبرز من فعل ذلك خليل بيدس الذي ترجم عن اللغة الروسية بصورة أساسية.

١. ٤. الرواية الفنية الأولى:

اختلف الدارسون في تحديد الروايات الأولى، الأشد نضجاً وفنية، بحيث تصلح لأن تعد أول رواية عربية حديثة، فهناك من يذكر أنَّ أول رواية عربية صدرت، كانت للجنوبية اللبنانية – **زينب فوّاز** وعنوانها **(حسن العواقب عام ١٨٩٩)**، وهناك من يذكر رواية (أُمّ حكيم) لمحمد أحمد التميمي عام ١٩٠٥، وهناك من يركز على **رواية (زينب) لمحمد حسين هيكل** التي صدرت **عام ١٩١٥** باسم مستعار، ويمكن أن نعدها الرواية الأقرب للشكل الحديث الذي كوّنته التجارب اللاحقة، وهي رواية تنطلق من البيئة المصرية بأسلوب رومانسي، عن علاقة شاب غني بفتاة عادية (من الشعب) شأنها في ذلك شأن سائر الروايات العاطفية آنذاك (مثل دعاء الكروان لطه حسين)، وكثير مما كتبه المنفلوطي أو عرّبه.

- وهناك عمل آخر مميز هو عمل **فرنسيس فتح الله مراش المسمى (غابة الحقّ)** الذي يعتبره جابر عصفور عملاً رائداً مضموناً وشكلاً، خصوصاً أنها صدرت مبكراً **(حلب ١٨٦٥)**، وهي أقرب للرواية الفكرية أو الفلسفية المتأثرة بثقافة مراش الفرنسية والعالمية.

- أما **زينب فواز** التي تنقلت من جبل عامل بلبنان (موطنها الأول) ثم سوريا ثم مصر، فتعدّ رائدة الكتابة القصصية النسوية، بلا منازع، بل إنها تنافس الكتاب الأوائل على ريادة فن الرواية العربية في أعمالها السابقة زمناً على رواية زينب لمحمد حسين هيكل.

٣. صعود الرواية:

صعدت الرواية في النصف الثاني من القرن العشرين، مواكبة لتحولات المجتمع العربي بأقطاره وبيئاته وأطيافه، وقد وفّرت الرواية بإمكاناتها السردية، وبما تتّسع له من استيعاب التفاصيل والتقاط التغيرات والتحولات فرصة ثمينة للتعبير عن حقبة صعبة، شهدت ذيول الاستعمار ورحيله، كما شهدت **نكبة فلسطين الأولى** وآثارها الفادحة وما تبعها من تبدلات مركزية. وظهر **النفط** أيضاً وكان اكتشافه إيذاناً بظهور تحولات ارتبطت بما خلّفه من آثار إقليمية ووطنية، وآثاره الاقتصادية والاجتماعية. كذلك شهد النصف الثاني من القرن العشرين ظهور **الدولة القُطرية، أو دولة الاستقلال** التي وعدت مواطنيها بأحلام كثيرة، لكنها خيّبت آمالهم في المستوى الواقعي، وباسم التحرر والاستقلال مورس الاستبداد وحرّمت الديمقراطية، وقُمعتْ وكممت الصحافة الحرة، وحوربت الأحزاب المعارضة. حدثت **النكبة الثانية لفلسطين عام ١٩٦٧**، وكانت النكبة الجديدة ضربة أخرى حطّمت الأحلام والطموحات وكشفت زيف الواقع العربي... مرّت حروب وتحوّلات متعددة، قبل أن تبدأ الحرب الأهلية في لبنان، ويوقع أنور السادات **اتفاق كامب ديفيد (١٩٧٨)**، ثم **احتلال بيروت عام ١٩٨٢**،

وخروج المقاومة الفلسطينية إثر ذلك... ثم آل الأمر إلى **مفاوضات مدريد واتفاقات أوسلو** ... الخ.

هذه التحولات الهائلة وجدت فيها الرواية مادة غنية اعتمدت عليها، وتشكلت من خلال ذلك أبرز هواجس الرواية واتجاهاتها من الناحية الموضوعية والفكرية، وفيما يلي **خريطة موجزة تبرز أهم تلك الهواجس والمناخات:**

١. **العلاقة مع الغرب:** منذ زمن مبكّر ظهر اتجاه مميّز يصوّر العلاقة مع الغرب بالتباساتها المختلفة حضارياً وسياسياً، ومن أبرز روايات هذا الاتجاه:
   ١. عصفور من الشرق: توفيق الحكيم
   ٢. موسم الهجرة من الشمال: الطيب صالح
   ٣. بدوي في أوروبا: جمعة حماد
   ٤. متاهة الأعراب في ناطحات السحاب: مؤنس الرزاز
٢. **قضية فلسطين:** شكّلت فلسطين منطلقاً لتيار واضح في كتابة الرواية العربية، فصوّرت تلك الروايات أحوال فلسطين كما رصدت آثار نكبة ١٩٤٨ ونكبة حزيران ١٩٦٧، وظهر تيار المقاومة، وآخر لتصوير أحوال المخيمات والظواهر الاجتماعية والإنسانية اللاحقة للنكبة. ومن أهم روايات هذا المحور:
   ١. ما تبقى لكم، عائد إلى حيفا: غسان كنفاني.
   ٢. المتشائل، إخطيّة: إميل حبيبي.
   ٣. العشاق، البكاء على صدر الحبيب: رشاد أبو شاور.
   ٤. باب الشمس: إلياس خوري.
   ٥. الملهاة الفلسطينية: إبراهيم نصر الله.
٣. **تحولات النفط والجزيرة العربية:** وأوضح من عبّر عن هذه التحولات **عبد الرحمن منيف** في رواية خماسية تتكون من خمسة أجزاء بأسماء فرعية هي: (التيه، الأخدود، تقاسيم الليل والنهار، المنبتّ، بادية الظلمات). ومن بعده ظهرت أصوات مميزة في الجزيرة العربية.
٤. **السجن والقمع السياسي:** صورت الرواية أحوال الاستبداد، وظاهرة السجن السياسي، وعبرت من خلال ذلك عن أشواق الحرية ومن أمثلة هذا التيار:
   ١. السجن، سمر الليالي: نبيل سليمان
   ٢. شرق المتوسط الآن هنا أو شرق المتوسط مرة أخرى: عبد الرحمن منيف

٣. تلك الرائحة: صنع الله إبراهيم

٥. **الحرب الأهلية في لبنان:** خلّفت الحرب الأهلية في لبنان آثاراً بالغة صوّرتها مجموعة من الروايات اللبنانية والعربية ومنها:

١. كوابيس بيروت: غادة السمان

٢. طواحين بيروت: توفيق يوسف عواد

٣. حكاية زهرة: حنان الشيخ

٤. قامات الزّبد: إلياس فركوح

٦. **بيئات عربية، وصور من المحلّية:** صورت مجموعة من الروايات خصوصية بعض البيئات في الريف أو البيئة البحرية أو الصحراء، بما يظهر التنوّع الثقافي، وأحوال الواقع ومن ذلك:

١. **الريف المصري (صورة الصعيد):** صوّرها **يوسف القعيد** في عدد من أعماله: أخبار عزبة المنسي، بلد المحبوب، وكذلك **بهاء طاهر** في روايته: خالتي صفيّة والدير.

٢. **الصحراء العربية وقبائل الطوارق:** نجد صورتها في أعمال **إبراهيم الكوني** الذي اعتمد مركزياً على أساطير تلك المنطقة وغدا الناطق باسمها ومن رواياته: نزيف الحجر، التبر.

٣. **الريف الأردني:** صورته واضحة في أعمال **سميحة خريس** (شجرة الفهود)، و**سليمان القوابعة** (حوض الموت).

٤. **بيئة البحر والميناء:** صور **حنّا مينا** مدينة اللاذقية وواقع المدينة البحرية في كثير من رواياته وخصوصاً: الياطر، حكاية بحّار، حكاية رجل شجاع.

٧. **قضية المرأة:** ظهر في الرواية العربية تيار واضح ركّز على معاناة المرأة العربية وقضايا حقوق المرأة، ومن هذه الروايات:

١. **كوليت خوري:** أيام معه.

٢. **لطيفة الزيات:** الباب المفتوح.

٣. **نوال السعداوي:** امرأة عند نقطة الصفر.

٤. **سحر خليفة:** لم نعد جواري لكم

٨. **روايات التحول السياسي:** صورت هذه الروايات الصراع السياسي، ورسمت صورة للتيارات السياسية المتعارضة، وتتميز بأنها محكومة بالرؤية الأيديولوجية والسياسية، ومن أهمها:

١. الشمس في يوم غائم: حنا مينة
٢. نجمة أغسطس، أمريكا نللي: صنع الله إبراهيم
٣. الرهينة: زيد مطيع دمّاج
٤. اللاز: الطاهر وطّار
٥. أحياء في البحر الميت: مؤنس الرزاز

٩. **روايات الهاجس الفكري والرؤية الفلسفية:** وهي روايات قليلة في التجربة العربية مقابل غلبة النوع الواقعي ورواية الهموم الاجتماعية والسياسية، ومن الروايات ذات الارتباط بالهواجس الفكرية والفلسفية.

١. أولاد حارتنا: نجيب محفوظ
٢. الغرف الأخرى: جبرا إبراهيم جبرا
٣. ممرات الصمت: فاضل الربيعي
٤. حجارة بوبيللو: إدوار الخراط

١٠. **تيار الموروث السردي:** وهو تيار واضح عبر الاعتماد عل تقنيات السرد التراثي، أو محاولة إحياء نوع سردي قديم، ومن أمثلة هذا التيار:

١. حدّث أبو هريرة قال: محمود المسعدي
٢. رحلة ابن فطومة: نجيب محفوظ
٣. المقامة الرملية: هاشم غرايبة
٤. الدراويش يعودون من المنفى: إبراهيم درغوثي
٥. نوّار اللوز: واسيني الأعرج
٦. النخّاس: صلاح الدين بوجاه

١١. **روايات تاريخية:** هناك تيار اختار التاريخ سبيلاً لمعالجة الواقع، فكانت المادة التاريخية هي المكون والمادة الأساسية، ومن هذه الروايات:

١. الزيني بركات: جمال الغيطاني

٢. ثلاثية غرناطة: رضوى عاشور

٣. أبناء القلعة، الزوبعة: زياد قاسم

١٢. روايات الهجرة اللغوية: هناك روائيون من أصول عربية، كتبوا لغات أخرى معبّرين عن هواجس عربية وشرقية ومنهم:

١. كاتب ياسين: نجمة

٢. الطاهر بن جلّون: ليلة القدر

٣. أمين معلوف: ليون الإفريقي، حدائق النور

وكذلك كتابات: محمد ديب وآسيا جبار ومليكة مقدم ورشيد بوجدرة وغيرهم.

٤. نجيب محفوظ: الرواية ... وجائزة نوبل:

قد يكون اسم نجيب محفوظ من الأسماء الشائعة في الأوساط العربية، سواء أكانت أوساط المثقفين، أم الناس العاديين الذين لا شأن لهم بالأدب وشؤونه، ومجرد شيوع هذا الاسم وألفته على الأذن العربية مؤشر مبدئي على تلك الشهرة التي تمكّن محفوظ من بلوغها على مدار عقود طويلة، سجل خلالها ديواناً جديداً ينطوي على فرادة خاصة في الموضوع والأسلوب، وحفّز- مثلما هم العباقرة دوماً – قرناً بكامله على مزيد من العطاء والحيوية، فلم يكتفِ بنشاطه الشخصي، وإنما حرّك الساكن في الكتابة، وغيّر في مراتب أجناس الأدب، وجذب جمهوراً كبيراً في مصر والعالم العربي، وشجّع بإنتاجه المتميز حركة النّقد العربي، التي وجدت في نتاجه كنزاً لنشاطها.

- نجيب محفوظ، أول أديب عربي، ينال جائزة نوبل للأدب عام ١٩٨٨، الجائزة الأسطورية والأولى في العالم رغم كل ما يقال عن ملابسات منحها، وعمّن يسيطر عليها، لكنّ مجرد ارتباط اسمه بها، نقله إلى قطاعات أخرى في العالم الشاسع، فصار اسمه مألوفاً عند القارئ الغربي، وإن بدرجة أقل من القارئ العربي، وبذلك نجح في اختراق كل الحجب والعوائق، فتم إدراج اسم يتميز بلكنة عربية، ضمن قائمة أعجمية هي قائمة الفائزين بها في حقول متعددة على مستوى العالم.

بدأ نجيب محفوظ **(مواليد ١٩١١) من حي الجمالية** الذي ولد فيه، وكان ترتيبه الأخير بعد أخوين وأربع أخوات، وكما يقول بلسانه عن نشأته المبكرة:(كان لدي إحساس بالحرمان من الأخوة فعندما وصلت سن الخامسة كان الفرق بيني وبين أصغر أخ لي خمسة عشر عاما،

وأغلب حياتي في بيتنا كأنني طفل وحيد لذلك انعكس هذا في تصويري لعلاقات الأخـــوة في الثلاثية وبداية ونهاية وخان الخليلي).

من مصر القديمة إلى القاهرة الجديدة

أما أول ظهور لمحفوظ في عالم التأليف، فيتمثل في إطلالة شبه مجهولة عندما ظهر اسمـــه على كتاب مترجم، يشير إلى معرفته للغة الإنجليزية، وإلى اهتمامه بمصر دون غيرهـــا، ونعـــني كتابه الأول المترجم (مصر القديمة/١٩٣٢). وفي رواياته الثلاثة الأولى لم يغادر نجيب محفـــوظ (مصر القديمة)، فكتب أعماله المبكرة: **عبث الأقدار/١٩٣٩، ورادوبيس/١٩٤٣، وكفاح طيبة/١٩٤٤**، التي حاول فيها استنادا إلى وقائع التاريخ المصري القديم بناء روايـــة تاريخيـــة بدلالات لا تفتقر إلى المعاصرة، لكنها أيضا لا تبتعد كثيرا عما أنجزه السرد العربي في بداياتـــه التاريخية كما عند جرجي زيدان أو غيره ممن اختاروا هذا النمط من السرد واشتهروا به.

التحول إلى الواقعية والمكانية

مع **رواية القاهرة الجديدة**، يبدأ محفوظ عهداً مغايراً، حيث ينتقل إلى ذلك العالم الذي لامسه في بعض **قصص (همس الجنون)** لكن مع تركيز أوضح على المكان، وبالرغم من شـــدة وضوح الشخصيات في هذه المرحلة، فإن المكان يبدو هو البطل، وهذا ما ينسحب على **(زقاق المدق)** و**(خان الخليلي)**،وما يشبههما من روايات واقعية، فمحفوظ في هذه المرحلة ينطلق من مكان محدد شبه معزول، لكن الرواية تحوله إلى مكان ممتلئ بالحراك، وتندفع لتكـــشف عـــن علاقاته الداخلية وعن تحولاته التي ترتبط بتأثيرات من الخارج لكنها تفعـــل فعلـــها في عالمـــه الداخلي.

ولو وقفنا وقفة خاطفة عند **(زقاق المدق)** لوجدنا (محفوظ) يرسم في مفتـــتح الروايـــة مشهداً للزقاق الصغير الذي (يكاد يعيش في شبه عزلة عما يحدق به من مـــسارب الـــدنيا)، وتتقدم هذه الصورة المكانية الأليفة على أي عنصر آخر، ثم يختار زمن الغروب ليكـــون أول لحظات رسمه وتقديمه، والزمان هنا ليس إلاّ مؤشراً على تلاشي المكان وبدايات أفوله وتغـــيره رغم مظاهرة الانعزالية.

الثلاثية...رواية الأجيال

يتوج محفوظ هذه المرحلة **بالثلاثية** التي أنجز كتابتها قبل ثورة يوليو ١٩٥٢، لكنه تأخر في نشرها فظهرت عامي ١٩٥٦-١٩٥٧ بعناوينها اللافتة: **بين القصرين، قـــصر الـــشوق، السكرية**، أما العنصر الذي أضيف إلى الثلاثية فضلاً عن بلاغة المكان وبطولته، فهـــو عنـــصر

الزمن، فقد تمكن محفوظ من بناء رواية أجيال، عبر ملاحقة أسرة عبد الجواد، ومتابعة أفرادها وأجيالها جيلاً جيلاً، دون أن يحصر هذه الأجيال مكان واحد، إذ استلزمت تحولات القاهرة أن تتنقّل الرواية بين أمكنة متعددة، وفق منطق المدنية وتحولاتها، ووفق حركة الأجيال التي تتنقل مكانيا وحضاريا وتعكس في نقلاتها صورة القاهرة وتحولاتها.

واجه محفوظ التحول الثوري في مصر بصمتٍ ماكر، قبل أن يستعيد حاسته السردية من جديد، متنقلاً إلى منطقة الداخل بدلاً من الخارج، مستندا إلى ثقافته الفلسفية التي كاد أن يتخصص فيها بعد ليسانس الفلسفة منتصف الثلاثينات، استنادا إلى تلك الخبرة أنجز **روايته المهمة (أولاد حارتنا) عام ١٩٥٩** بعد أن قضى حوالي أربعة أعوام في التخطيط والكتابة.

الرواية النفسية والتقية السياسية

ومع **رواية اللص والكلاب** يلجأ إلى الفرد الذي لا ينفصل عن الجماعة، لكن الرواية تركز عليه في حالة الإفراد لا الجمع، وتبدو أزمة سعيد مهران أزمة البطل المفرد، وأزمات النفس الوحيدة التي تريد أن تواجه مجتمعاً بأكمله، نتحول إلى ما يقرب من الرواية السيكولوجية، بدلاً من رواية الأجيال ورواية المكان،ورواية العالم أو قصة الكون، ولعل هذه النقلة من الخارج إلى الداخل قد هيأت السبيل لرواياته التالية: **السمان والخريف، والطريق، والشحاذ.**

وقد نسمي هذه المرحلة بمرحلة التقية الأدبية، إذ هي تعويض عن تناول الواقع وتركيز على قطاعات لا تغضب الصورة، لكن التقية السياسية أتاحت لمحفوظ مدى تعبيرياً يتداخل فيه الرمز والمحتوى السيكولوجي وأتاحت له أن يطور أسلوبه ويجدد كتابته، أي أن التحدي الذي ربما تأسس على نوع من الجبن السياسي كان نافعا للكاتب لأنه تحول إلى تحد إبداعي نجح محفوظ في العبور منه إلى مناطق جديدة من التعبير الروائي الجديد.

وحين كتب **روايته (ثرثرة فوق النيل)** اختار أن يعزل شخصياته في زورق أو عبّارة بدلا من مجابهتها في أمكنتها التقليدية، ولم يتخل عن الأنظمة الجمالية التي تتناسب مع التقية السياسية، ولم يظهر النقد الصريح للثورة إلا بعد وفاة عبد الناصر، كما في رواية (الكرنك) التي جمع فيها شخصياته في المقهى الذي حملت الرواية اسمه، وهي شخصيات متباينة في انتماءاتها الفكرية والسياسية.

قاهرة نجيب محفوظ:

إنه محفوظ ولا أحد غيره، في تحولاته وتجواله البليغ في النفس الفردية وفي وجدان المجتمع ، بل في الوجدان الإنساني كله، من التاريخ إلى المكان النابض بالبشر والحركة إلى الزمان

بأمكنته وأجياله ،وقد ظل محافظا على نكهته القاهرية مستمدا منها كل احتمـــالات الـــسرد، مكيفا معها الأساليب والتقنيات على نحو لا تحس للصناعة أثرا فيها، ولهذا تبدو العبارة الشائعة: قاهرة نجيب محفوظ عبارة دالة على الكاتب الذي أسهم في تشكيل المدينة.

٥. القصة القصيرة: علامات كبرى

القصة القصيرة:

القصة القصيرة نوع سردي يميل إلى الإيجاز والاختزال، والاعتماد على خيط أو عنصر مركزي واحد، تميز بقصرها إذ تقرأ في جلسة واحدة، وبحبكتها التي تبدأ غالبـــاً وســـط الأحداث، وبمحافظتها على وجهة نظر واحدة وموضوع واحد ونبرة واحدة.[1]

وقد نشأت بصورتها الحديثة متزامنة مع نشأة الرواية في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، كما نضجت ونشطت مع تطور الصحافة وظهور أعداد متزايدة من المجـــلات والصحف، إضافة إلى تعدد التفاصيل والأحوال التي استلزمت التعبير القصصي الموجز. أما في الموروث السردي العربي فنجد للقصة القصيرة منابع في أشكال من السرد الموجز ومن أمثلته:

١. **قصص الأمثال:** وأقدم كتاب تخصص فيها هو كتاب أمثال العرب للمفضّل الـــضبي (ت ١٧٨هـ).
٢. **الحكاية الرمزية والخرافية:** كما في كتاب كليلة ودمنة لعبد الله بن المقفع (ت١٤٢هـ).
٣. **قصص البخلاء ونوادرهم:** كما في كتاب البخلاء للجاحظ (ت٢٥٥هـ).
٤. **كتاب الأخبار:** كما في الأخبار الموفقيات للزبير بن بكار (ت٢٥٦هـ)، وكذلك ما جـــاء عند القاضي التنوخي في كتابه الهام: الفرج بعد الشدة.
٥. **المقامة:** وأشهرها مقامات بديع الزمان الهمذاني (ت٢٩٨هـ).

---

[1]. انظر: لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، مكتبة لبنان ناشرون، ٢٠٠٢، ص ٢٦-٢٨، ولاحظ المقارنة بين القصة القصيرة والرواية.

١. رواد القصة القصيرة:

هناك أسماء كثيرة تتردد في التأريخ لبدايات القصة العربية الحديثة، ومن تلك الأسماء: **محمد تيمور، محمود تيمور، عيسى وشحاتة عبيد، محمود طاهر لاشين، إبراهيم المازني، خليل بيدس، محمد صبحي أبو غنيمة، يحيى حقّي، علي الدوعاجي**، وغيرهم.

- **محمود تيمور**: القاص المصري محمود تيمور (١٨٩٤-١٩٧٣) هو أشهر أعلام القصة الأوائل، وأوضحهم غزارة في الإنتاج، ولذلك فقد كان لكتاباته تأثر واضح في مجرى القصة وتطورها. وقد تأثر بالقصة الغربية إلى جانب ثقافته العربية الرصينة إذ تتلمذ في بيت عربي عريق تشيع فيه الثقافة الكلاسيكية بتأثير من والده (أحمد تيمور) وأخيه الأكبر (محمد تيمور). وصل إنتاج تيمور إلى قرابة ثلاثين مجموعة قصصية وعدد من الروايات والمسرحيات. ويقول صبري حافظ بأن محمود تيمور: (استطاع أن يحقق توازناً حساساً بين عناصر القصة المختلفة، ويوجد شخصيات إنسانية مقنعة، وحالة قصصية ناضجة، غنية في مادتها وبنائها وصراعها).[٢]

من أبرز المجموعات القصصية لمحمود تيمور: زامر الحي، دنيا جديدة، الشيخ سيد العبيط. وأول مجموعة لتيمور هي **الشيخ جمعة (١٩٢٥)** وآخرها **بنت اليوم (١٩٧١)**، وبصفة عامة فقصص تيمور ذات نفس رومانسي محبّب، ولغتها أقرب للبساطة وللغة الحياة المناسبة للقصة القصيرة. ولهذا الكاتب الفضل في تكريس فن القصة القصيرة من خلال غزارة إنتاجه ونشره في الصحف والمجلات، على مدى عقود متتابعة. ويمكن القول بأن القصة العربية ظلت على مدى عقود طويلة متأثرة بحضور محمود تيمور ومدرسته القصصية، التي تركز على إبراز شخصيته، وعلى الحبكة القصصية كما طورها **رائد القصة الفرنسية (موباسان)**، وتيمور نفسه اختار اسم (موباسان المصري) توقيعاً رمزياً لمجموعته الأولى في إعلان خفي عن تأثره بهذا الكاتب المميز ذي الأثر البليغ في القصة العالمية.

٢. القصة العربية: علامات أساسية:

في النصف الثاني من القرن العشرين تطورت القصة تطوراتً بليغة، وصار عدد كتابها بالمئات، ويمكن التمثيل على غناها بالأسماء العربية التالية:

مصر:	**المغرب العربي**:

[2]. **انظر: صبري حافظ، القصة القصيرة في: تاريخ كمبردج للأدب العربي، الترجمة العربية، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ٢٠٠٢، ص ٤٠٤-٤٠٥.**

يوسف إدريس أبو المعاطي أبو النجا يحيى الطاهر عبد الله محمد مستجاب محمد عبد الحليم عبد الله	علي الدوعاجي (تونس) محمد العروسي المطوي (تونس) محمد زفزاف (المغرب) محمد شكري (المغرب) زهور ونّيسي (الجزائر) عبد الحميد بن هدوقة (الجزائر) خليفة التليسي (ليبيا)
سوريا ولبنان: يوسف حبشي الأشقر (لبنان) زكريا تامر (سوريا) عبد السلام (سوريا)	**العراق**: فؤاد التكرلي عبد الملك نوري محمد خضيّر عبد الرحمن مجيد الربيعي
فلسطين والأردن: محمود سيف الدين الإيراني عيسى الناعوري محمود شقير خليل السواحري فخري قعوار صالح أبو اصبع جمال حمدان إلياس فركوح	**الجزيرة العربية**: عبده خال (السعودية) يوسف المحيميد (السعودية) ليلى العثمان (الكويت)

- وفيما يلي نبذة عن نماذج من كبار القصاصين الذين كانت لهم خصوصية في كتابة القصة القصيرة:

١. يوسف إدريس: القصة الواقعية:

يوسف إدريس **(١٩٢٧-١٩٩١)** جاء من عالم الطب ليصبح أحد أبرز أساتذة القصة العربية الواقعية، فقد تمكّن من إشباع القصة الواقعية التي ظهرت بوادرها عند محمود طاهر لاشين (مصر) ونجاتي صدقي (فلسطين) وعلي الدوعاجي (تونس)، وطوّرها حتى تحولت إلى مدرسة فنية بليغة. ولذلك يعد **يوسف إدريس العلامة الكبرى في مسار القصة القصيرة الواقعية**، وصاحب الأثر الفاعل في تجارب عربية كثيرة اتجهت إلى المنحى الواقعي، وأبرز الأعمال القصصية ليوسف إدريس هي:

أرخص ليالي (١٩٥٤)، آخر الدنيا (١٩٦١)، العسكري الأسود وقصص أخرى (١٩٦٢)، لغة الآي آي (١٩٦٥)، الندّاهة (١٩٦٩)، بيت من لحم (١٩٧١)، العتب على النظر (١٩٨٨).

تعتمد قصص يوسف إدريس على مادة الواقع المصري بصورة مؤثرة، ولذلك فقصصه أحد البوابات الأساسية لفهم الشخصية المصرية وقراءتها، فالواقع هو الكتاب الذي يقرأ منه يوسف إدريس، ويشير الكاتب نفسه إلى أنّه في بداية تجربته الكتابية قضى عامين في تأمل الواقع ودراسة الشخصيات الواقعية.

٢. زكريا تامر: القصّة التعبيريّة:

كان ظهور القاص زكريا تامر **(مواليد دمشق ١٩٣١)** منذ بداية الستينات إيذاناً بظهور مدرسة قصصيّة مميّزة، يطلق عليها التعبيرية أو الذاتية أو الشعرية، ومع أنها ذات منطلق واقعي (ليس هناك قصة غير واقعية) لكنها تبتعد عن التناول المباشر للواقع بأساليب إيحائية وتعبيرية متعددة.

أما أعمال زكريا تامر فثماني مجموعات قصصية هي:

صهيل الجواد الأبيض (١٩٦٠)، ربيع في الرماد (١٩٦٣)، الرعد (١٩٧٠)، دمشق الحرائق (١٩٧٣)، النمور في اليوم العاشر (١٩٧٨)، نداء نوح (١٩٩٤)، سنضحك (١٩٩٨)، الحصرم (٢٠٠٠).

ويعلّق محمد كامل الخطيب على تجربة زكريا تامر بقوله: (من عناصر العالم الواقعي، يبني زكريا تامر عالماً غير واقعي، وغير معقول، عالماً يمكن اعتباره معادلاً فنياً لوجهة نظر الكاتب الفلسفية – الاجتماعية حول العالم الواقعي والمجتمع).[٣]

ويمكن إيجاز أبرز خصائص القصة التعبيرية كما عمّقها زكريا تامر فيما يلي:

١. الانطلاق من الواقعي إلى الغرائبي، ومن المعقول إلى اللامعقول، وهو ما يستلزم نشاط المخيّلة وفعالية الدمج بين الممكن والمستحيل.

---

[3]. **محمد كامل الخطيب، السهم والدائرة، دار الفارابي، بيروت، ١٩٧٩، ص ٩٠.**

٢. حضور الرمز بإمكاناته وطاقاته المختلفة: الرموز الإنسانية والحيوانية والطبيعية، واستخدام رموز تراثية واستحضار شخصيات من الماضي ووضعها في إطار الحاضر وتوقّع سلوكاتها الجديدة.

٣. تقنيات الأحلام والكوابيس وكل ما ينتج عن عالم اللاوعي والعالم الباطن في الكائن الإنساني.

٤. السمة الشعرية في الرؤية واللغة، وزكريا تامر أسهم في نقل لغة الشعر الحديث إلى القصة فأضاف لها لمسات فنية مميزة، ولذلك تفيض قصته بالصور والأخيلة والإيقاع.

٥. السرد المشوش، لجأ تامر إلى تحطيم التسلسل المنطقي للأحداث، فصارت ذاكرة الشخصية وأحلامها وكوابيسها هي الأساس، وفي مثل هذا الحال تحضر الذكريات والرغبات ممزّقة غير منظّمة. ولذلك ليس لديها حبكة بالمعنى المعروف، بل في قصصه حبكة مشققة أو ممزّقة تشبه تمزّقات الواقع العربي.

٦. حضور تقنيات الاسترجاع والاستباق عبر حضور حاسة التذكّر وحاسة التوقع، أي استذكار أحداث ماضية، ورسم سيناريوهات مفترضة لوقائع مستقبليّة وهذا يساهم في خلخلة السرد، وتعميق مفهوم الحبكة الممزّقة.

٧. حضور عناصر من السخرية السوداء وعناصر التهكم والإضحاك وبلاغة المفارقة القصصية، من خلال إبراز تناقضات الواقع وفضح المسكوت عنه.

٣. محمود شقير: القصة القصيرة جداً

تمتد تجربة محمود شقير **(مواليد القدس ١٩٤١)** على مدى زمني طويل يزيد عن أربعة عقود، شهدت تحولات واختبارات للكاتب والكتابة، و**يرتبط شقير بمجلة الأفق الجديد المقدسية (١٩٦١-١٩٦٦)**، فمعها اقترن اسمه بالقصة القصيرة إلى جانب أسماء بارزة مثل: فخري قعوار، يحيى يخلف، صبحي شحروري، خليل السواحري، نمر سرحان، الشهيد ماجد أبو شرار وغيرهم ... وقد صدرت لمحمود شقير ما يقرب من عشرين مجموعة قصصية، منها: خبز الآخرين، ١٩٧٥ – الولد الفلسطيني، ١٩٧٧ – صمت النوافذ، ١٩٩١ – مرور خاطف، ٢٠٠٢ – صورة شاكيرا، ٢٠٠٣ – ابنة خالتي كوندوليزا، ٢٠٠٤. وصدرت له قصص للأطفال والفتيان، وكتب القصة الواقعية، والقصة القصيرة جداً... الخ.

أما التحول الأبرز فيتمثل في التحول من قصة العالم الخارجي/ الواقعي إلى قصة العالم الداخلي/ النفسي والانفعالي.

وقد بدا هذا التحول ساطعاً في مجموعته القصصية **(طقوس للمرأة الشقية) ١٩٨٦**، عندما اتجه إلى شكل **القصة القصيرة جداً**، كشكل قائم على الاختزال والاقتصاد اللغوي، والامتلاء الدلالي بصورة تذكر بالمحمولات الجمالية للشعر، وبطريقته التي تختزل التفاصيل وتفارق النثر الذي يميل إلى نوع خاص من الإطناب أو الاستطراد التعبيري. أما تبعات هذا التحول فكثيرة، وستلحق تغيرات حاسمة بالسمات المختلفة للقصة القصيرة، ستتخلخل تلك السمات، وتتكيف مع التغير المحوري في الرؤية.